اغلاط المولدين

(تابع لما قبل)

واذا تفقّدت الفاظ اللغة وجدت جانباً كبيراً منها اصلهُ ما ذُكِر وان لم يمكن ردّ كل لفظٍ الى قائلهِ الاول لان ذلك مما حال بيننا وبينهُ كرور الايام. يدلك على ذلك كثرة الصيغ من المادّة الواحدة لمعنًى واحد مما لا تدعو اليهِ حاجة الاستعمال ولا يستفاد منهُ اتّساعٌ في التعبير عن المعاني بل ربما أدّى الى صعوبة مأخذ اللغة لما ينشأ عنهُ من اضطراب اقيستها بسبب اختلاط المقيس بالشاذّ على ما مرّت بك مُثُلهُ. وحسبك أن للعبد عشرة جموع هي أَعبُد وعَبيد وعِباد وعُبُد بضمتين وعُبْدان بالضم والكسر وعِبِدّان بكسرتين وتشديد الدال وعِبِدّى وعِبِدّاء كذلك بالقصر والمدّ ومَعْبَدة ومعبوداء . واكثر هذه الجموع لا يقاس عليهِ ومنها ما لا تجد لهُ نظيراً في غير هذا الحرف ولذلك جعلوا ما شذّ منها اسماء للجمع لا جموعاً

ومهما يكن من ذلك كلهِ فان هذه الالفاظ وامثالها قد مضت على وجهها وأقرّها استعمال العرب لها فلم يبقَ الا ان نستعملها كما سُمِعت عنهم لكن لا بدّ لنا عند استعمال اللفظة من التثبُّت فيها فان صحّ انها مما استعملوهُ في كلامهم استعملناها بغير نكير ولا بحث والا رجعنا بها الى القياس فان وافقتهُ فذاك والا نبذناها الى ان يتبين ثَبَتها من السماع

ومعلومٌ أن اللغة بعد ظهور الاسلام واختلاط العرب بالعجم لم تلبث

الاّ زمناً قصيراً حتى سرى اليها الفساد كما يدلّك على ذلك ما ذكروهُ من سبب وضع علم النحو على يد ابي الاسود الدُؤَليّ وقد كان ابو الاسود من اهل الصدر الاول للاسلام ولعلّ وضعهُ للنحو كان سنة ثمانٍ وثلاثين او سنة تسع وثلاثين للهجرة وهي السنة التي قدم فيها زيادٌ البصرة فقد جآء في احدى الروايتين ان ابا الاسود جآء زياداً بالبصرة فقال لهُ اصلح الله الامير اني ارى العرب قد خالطت هـذه الاعاجم وتغيرت السنتهم افتأذن لي ان اضع لهم علماً يقيمون بهِ كلامهم . قال لا . ثم جآء زياداً رجلٌ فقال مات ابانا وخلّف بنون . فقال زياد مات ابانا وخلّف بنون . . ردّوا اليّ ابا الأسود فرُدَّ اليهِ فقال ضَعْ للناس ما نهيتك عنهُ فوضع لهم النحو . اه . ولا شك ان هذا لم يكن اول خطإٍ جرى على السنتهم بل أَحرِ باللغة اذا كانت قد بلغت الى هذا الحدّ من الفساد حتى تنكّرت صُوَرَ الاعراب فيها ولم يعد يميَّز بين المرفوع والمنصوب ان يكون قد تطرّق الفساد قبل ذلك الى معاني ابنيتها واحكام صوغها واشتقاقها مما هو اخفى سرّاً من الاعراب ولا يطّرد اطّراد الاحكام النحوية . ولا بد مع ذلك ان يكون قد عرض على اوضاعها كثيرٌ من التحريف والتبديل واحالة بعض الالفاظ عن معانيها على ما يقرب مما نراهُ لعهدنا الحالي وان تفاوت الامر في القلة والكثرة لان المرجع في كلا الحالين الى زوال ملكة اللغة من الالسنة وفقد القانون الذي تجري عليهِ ولذلك منع علمآء اللغة والنحو الاحتجاج بكلام المولَّدين مهما كانت منزلتهم من الفصاحة لانهم مظنة للخطآء واللحن باستدراج العامة لانهم نشأوا بينها وتناولوا كلامها قبل الفصيح

قال الشيخ عبد القادر البغدادي في كتابهِ خزانة الادب على شواهد شرح الكافية قال الاندلسيّ في شرح بديعية رفيقهِ ابن جابر علوم الادب ستة وهي الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع . والثلاثة الاول لا يُستشهَد عليها الا بكلام العرب دون الثلاثة الاخيرة فانهُ يُستشهَد فيها بكلام غيرهم من المولدين لانها راجعة الى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم ولذلك قُبِل من اهل هذا الفنّ الاستشهاد بكلام البحتري وابي تمّام وابي الطيّب وهلمّ جرًّا . قال واقول الكلام الذي يُستشهَد بهِ نوعان شعرٌ وغيرهُ فقائلُ الاول قد قسمهُ العلمآء على طبقاتٍ اربع الطبقة الاولى الشعرآء الجاهليون وهم قبل الاسلام كامرئ القيس والاعشى والثانيـة المخضرَمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام كلبيد وحسّان والثالثة المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الاسلام كجرير والفرزدق والرابعة المولَّدون ويقال لهم المحدَثون وهم مَن بعدهم الى زماننا كبشّار بن بُرْد وأبي نوَاس . فالطبقتان الأُولَيان يُستشهَد بشعرهما اجماعاً واما الثالثة فالصحيح صحـة الاستشهاد (لعل الصواب عدم صحة الاستشهاد) بكلامها وقد كان ابو عمرو بن العلآء وعبد الله بن ابي اسحق والحسن البصريّ وعبد الله بن شُبرُمة يلحّنون الفرزدق والكُمَيت وذا الرُمّة واضرابهم وكانوا يعدّونهم من المولَّدين لانهم كانوا في عصرهم . واما الرابعة فالصحيح انهُ لا يُحتجّ بكلامها مطلقاً وقيل يُحتجّ بكلام من يوثق بهِ منهم واختارهُ الزمخشري وتبعهُ الشارح المحقق (اي الرضي) فانهُ استشهد بشعر ابي تمّام في عدة مواضع من هذا الشرح واستشهد الزمخشري

ايضاً في تفسير اوائل البقرة من الكشاف ببيت من شعرهِ وقال وهو وان كان مُحدَثاً لا يُستشهَد بشعرهِ في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقولهُ بمنزلة ما يرويهِ . واما قائل الثاني (اي غير الشعر) فهو إمّا ربّنا تبارك وتعالى فكلامهُ عزّ اسمهُ افصح كلامٍ وابلغهُ . . وإمّا احد الطبقات الثلاث الاولى من طبقات الشعراء التي قدّمناها . وأمّا الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليهِ وسلم فقد جوّزهُ ابن مالك ومنعهُ ابن الضائع وابو حيّان وسندهما امران احدهما ان الاحاديث لم تُنقَل كما سُمِعَت من النبيّ صلى الله عليهِ وسلم وانما رُوِيت بالمعنى وثانيهما أن ائمة النحو المتقدمين من المِصْرَين لم يحتجّوا بشيء منهُ . ورُدّ الاول على تقدير تسليمهِ بان النقل بالمعنى انما كان في الصدر الاول قبل تدوينهِ في الكتب وقبل فساد اللغة وغايتهُ تبديل لفظٍ بلفظٍ يصحّ الاحتجاج بهِ . . ورُدّ الثاني بانهُ لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال بهِ والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحويّ في ضبط الفاظهِ ويلحق بهِ ما رُوِي عن الصحابة واهل البيت . وقال السيوطي في الاقتراح واما كلامهُ صلى الله عليهِ وسلم فيُستدَلّ منهُ بما ثبت انهُ قالهُ على اللفظ المرويّ وذلك نادرٌ جدًّا انما يوجد في الاحاديث القصار على قلّةٍ ايضاً فان غالب الاحاديث مرويٌّ بالمعنى وقد تداولتها الاعاجم والمولّدون قبل تدوينها فرووها بما ادّت اليهِ عبارتهم فزادوا ونقصوا وقدّموا وأخّروا وابدلوا الفاظاً بالفاظ ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويًّا على اوجهٍ شتى بعباراتٍ مختلفة . . وقال ابو حيّان في شرح التسهيل قد اكثر المصنف من الاستدلال بما وقع في

الاحاديث على اثبات القواعد الكلية في لسان العرب وما رأيت احداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة.. وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين الاذكيآء فقال انما ذكر العلمآء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول صلى الله عليهِ وسلم.. وانما كان كذلك لامرين احدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى .. وقد قال سُفيان الثوري ان قلت لكم اني احدثكم كما سمعت فلا تصدّقوني انما هو المعنى. والامر الثاني انهُ وقع اللحن كثيراً فيما رُوي من الحديث لان كثيراً من الرواة كانوا غير عربٍ بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب . انتهى باختصار

قلنا ويلحق بذلك ما رُوِي من خُطَب الامام عليّ التي جمعها السيد الرضي في كتاب نهج البلاغة وهذه ايضاً لم يثبت انها لفظ الامام فقد جآء في خطبة جامع الكتاب ما نصّهُ « وربما جآء في أثنآء هذا الاختيار اللفظ المردَّد والمعنى المكرَّر والعذر في ذلك أن روايات كلامهِ تختلف اختلافاً شديداً فربما اتفق الكلام المختار في روايةٍ فنُقِل على وجههِ ثم وُجِد بعد ذلك في روايةٍ اخرى موضوعاً غير وضعهِ الاول اما بزيادةٍ مختارة او بلفظٍ احسن عبارةً فتقتضي الحال ان يُعاد استظهاراً للاختيار وغيرةً على عقائل الكلام » . انتهى بحرفهِ . بل جآء في ترجمة ابن خلكانَ للشريف المرتضى اخي الشريف الرضي ما نصّهُ «وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام عليّ بن ابي طالب

رضي الله عنهُ هل هو جمعهُ ام جمع اخيهِ الرضي وقد قيل انهُ ليس من كلام عليّ وانما الذي جمعهُ ونسبهُ اليهِ هو الذي وضعهُ والله اعلم

(ستأتي البقية)

حديقة السوسن

(تتمة)

— ١٥ —

ليت شعري ماذا يريد الانسان من دنياهُ رجلاً كان ام امرأة أليس الراحة والهناء يجنيهما من رياض الدعة والسلام بيد المجد والغنى . وهل يمكن تحصيل هذه المعدودات ما دام الجنسان يتسابقان ولا يترافقان ويختلفان ولا يأتلفان بل يتحاسدان ولا يترافدان . كلاّ ثم كلاّ

لذلك قلنا ولا نزال نقول ان الرجل عليهِ ان يكون رجلاً لا يتأنث والمرأة عليها ان تدوم انثى لا تتذكر تاركين بين نوعية الجنسين حدًّا فاصلاً لا يحاول احدهما ان يتعدَّاهُ . وليقف كلٌّ منهما في موقفهِ الذي اوجدتهُ فيهِ الطبيعة لا يتجاوزهُ ناظراً كلٌّ منهما الى الآخر نظر المتمم لهُ المكمل نقصهُ عالماً ان الانسان الكامل هو رجلٌ وامرأةٌ لا احدهما دون الآخر اذ كلٌّ منهما ناقصٌ بذاتهِ يقصر عن ان يؤلف انساناً مستقلاً . وعليهِ فكل ما هو للنساء هو للرجال وكل ما هو للرجال هو للنساء فعلامَ تحاول المرأة ان تجهد نفسها لتسلب شيئاً من وظائف الرجل وعلامَ يدأب الرجل ليختلس بعضاً من حقوق المرأة . لعمر الله ان نوع الانسان ما زال

في هذا العصر عصر المدنية والنور عصر البخار والبرق عصر السديم والكهربآء عصر البالون والاوتوموبيل يسعى الى حتفهِ بظلفهِ ولا يدري ويدنو الى وبالهِ بفعالهِ ولا يبالي

فلا يطمعنَّ البشر بان تصفو مواردهم وتحلو معايشهم وتصحَّ ألفتهم وتعذب عشرتهم وتتجاذب للخير قلوبهم وينعم بحقٍ بالهم وتستتبَّ على ثقةٍ احوالهم بحيث يضارعون الملائكة نعيماً وهنآءً ويسمون الكواكب مجداً وازدهآءً ويماثلون الأزاهر رونقاً وبهآءً ما لم يطَّرح كلُّ فردٍ من افراد الجنسين حبَّ الاثرة والتطاول الى نيل ما ليس لهُ ولا يجدر بهِ ولم يُخلَق لاجلهِ عالماً علم اليقين ان ما للكلّ للفرد وما للفرد للكلّ . فليلبث الرجل مُصاولاً ومجاولاً وهو حليف جهدٍ وعمل نِضو حروب واسفار قلبهُ قلب ملك وجسمهُ جسم جبار يعيش في منزلهِ مثالاً للإخلاص والحنوّ ورقة الشعور ليلج فردوس الحبّ من ارحب ابوابهِ ويعيش بين الناس بالاستقامة والجد والثبات والعدل ليحرز المجد والغنى ويظللهُ بنآء الفخر بأرفع قبابهِ . ولتقف النسآء آلهةً تجلى في آفاق المهابة والبهآء محفوفةً بملائك الصيانة والحيآء يتدفق من افئدتها النيرة الطاهرة شعاع الحبّ الشفاف الذي هو قوام الحياة وسرُّ النعيم متربعةً على عروش الجلال والظرف الممتنَّة بدعائم الرقة والعطف لا سلاح لها الا ما كان مصوغاً من مغناطيس سحرها الحلال ولا جنّة لها الا ما تسبكهُ من معدن الحكمة والكمال تصقل مرآة ادراكها الشفافة بمجلاة التعاليم المروّضة للاخلاق المنوّرة للبصائر مزحزحةً عنها اغشية الخرافات والاوهام التي من شأنها ان تقيّد الوجدان وتأسر الارادة

وتُظلم النفس وتميت من اعماق القلب جراثيم معرفة حقائق الاشيآء واسرار الوجود وكنه الحياة وتنشئ في سرائرها الميل الى السفاسف والتهافت على المماحكات والاشتغال باعراض الامور دون جواهرها واعتياد اثارة الفتن وزرع الفساد في حقول الالفة القومية والاخذ والرد فيما لا طائل تحتهُ ولا منفعة منهُ سوى ضياع العمر في القال والقيل ومزاولة الترّهات والاباطيل شأن الكثيرات من الشرقيات اللواتي يعشنَ لا يدرِينَ للحياة معنى ولا يذقنَ للهنآء طعماً بل يكنَّ نيراً على عاتق الوجود و بلآءً على نوع الانسان متحولّات عن صفات الملك الكريم الى حالة الشيطان الرجيم

هنالك الشقآء الاعظم والبلآء الادهم والعذابِ الذي ينادي مُعانيهِ « ألا موتٌ يباعُ فاشتريهِ » ولاجل الوصول الى تلك الحال السعيدة التي وصفناها في هذا الفصل وبها يتصافح الجنسان مصافحة الاخلاص الدائم ليعيشا في ظلال النعيم والسلام ينبغي ترقية التهذيب البشري الى حدٍّ تصبح الاخلاق عندهُ كالفضة الممحّصة بالنار او الخمر المصفّاة في الراووق لا زغل فيها ولا دخل

عند ذلك اذا سئلت الفتاة عن شواغل قلبها واسرار ضميرها ومدار عواطفها تبديها معتزّةً لا تخشى عذلاً ولا تأنيباً . واذا ذكر الفتى من ملكت قيادهُ ورانت على فؤادهِ سماها مفتخراً لا يوجس بسببها عاراً ولا تزييفاً . واذا عرف الناس ما عند متحابّين زادا في قلوبهم حظوةً واحتراماً فلا يقابلون علائق القلوب بالتسوئة والازدراء ولا يوسمون اصحابها

بفضولهم عذلاً وملاماً

عندها يعلم الخلق كافةً ان العواطف الحيّة الثابتة المؤسسة على المحاسن المعنوية هي مظهر السعادة ونور الحياة ومصدر الاخلاق الراضية والشمائل السامية والمزايا الممدوحة التي عليها مدار التفاضل بين افراد نوع الانسان . وانها هي التي تسود على شيطان المكر والخداع والبغض والمؤالسة والريآء فتسحق هامتهُ سحقاً وتستأصل شأفتهُ من هذه الارض بعد ان استبدّ فيها واستولى عليها ألوفاً من السنين فتصبح جنّةً تجري فيها انهار السعادة صافية الينابيع . وهذا سهل الادراك قريب المنال متى اقترنت الارادة الثابتة بالعزم الصادق

ان الانسان طبع ميالاً الى معرفة ما يجهلهُ وفي الكون جملة نواميس عامة منها تنازع البقآء ودوام الارتقآء فما دامت هذه النواميس ضابطة الكون وذلك الميل غريزيّاً في الانسان لا يرتاب عاقلٌ ان الأُسرة البشرية ستبلغ يوماً ما باخلاقها واحوالها ومعايشها الى هذا الدور السعيد ولو بعد امدٍ بعيد . انتهى　　سليم عنحوري

بماذا تعتزّ الشعوب

حديثٌ جرى لي مع احد الخلان الالبآء أقتضب منهُ ما يأتي تفكهةً لقرّآء الضيآء ولعلهُ لا يخلو من تبصرةٍ لمن القى السمع وهو شهيد

زعم الصديق ان المال سلطان كثير الاعوان فالشجاعة من جنودهِ والفصاحة من عبيدهِ والصدق من خواصّهِ وعزة النفس من اعوانهِ و ٢

ما يبعث على النخوة والمروءة من علاماتهِ وبالجملة فهو يزعم ان المال عنوان الصفات الكريمة وانها كلها قد اناخت ببابهِ لم ترَ عنهُ متحوَّلاً . وعلى هذا الزعم يرى ان اهل البلاد الغنية مالكون عنان المكرمات والمزايا الشريفة وبعكسهم اهل البلاد الفقيرة جبناء اذلاّء كذابون محتالون قد استعبدهم الغنيُّ فاضاع شرف نفوسهم وملك زمام امورهم واشترى ذمتهم بالرخيص وباع اعراضهم بيع الخسيس فجعلهم يكذبون لكسب رضاهُ ويرتكبون المحارم طمعاً في التقرب منهُ

وانت اذا تدبرت هذا الزعم واستقريت احوال الامم في الشرق والغرب تبيّن لك انهُ غير صحيح في الجملة وعلمت انهُ خُدعة من خُدَع الدينار ذي الوجهين بما لهُ من السطوة على العقول وان ما زعموهُ من سلطان المال وان صدق في كثيرٍ من الاحوال فلا يصح ان يتخذ قاعدةً عامّة للغنى وشرعاً مقرراً يحكم بموجبهِ على اخلاق الاغنياء بالسواء . ألا ترى ان الشجاعة قلما ترافق الغنى والفصاحة توشك ان تكون من الصفات التي لا تألف اهل الثروة وكم من غنيٍ كذوب يكاد لذكر النخوة والمروءة يذوب . وهل افقر ممن اتخذ السماء خيمةً وبسيط الارض فراشاً وكان فرسهُ كلَّ غناهُ ورمحهُ اثمن مقتناهُ والقميص جملة لباسهِ . اما هو البدويّ الذي يقول النار ولا العار والمنيّة ولا الدنيّة والحرّة تجوع ولا تأكل بثدييها أوَليس هو القائل

إنْ تسألوا الحقَّ نعطِ الحقَّ سائلَهُ　　　والدرع مُحقَبَةٌ والسيف مقروبُ
وانْ ابيتم فانَّا معشرٌ أُنُفٌ　　　لا نطعمُ الخسفَ انّ السمّ مشروبُ

والقائل

فلا تقبلَنْ ضيماً مخافة ميتةٍ ومُوتَنْ بها حرًّا وجلدكَ املسُ
وما الناس الا ما رأوا وتحدّثوا وما العجز الا ان يضاموا فيجلسوا

والقائل

نعرّض للسيوف اذا التقينا نفوساً لا تعرّضُ للسبابِ

الى اقوالٍ تضيق عنها ضخام الاسفار وكلها تنطق بافصح لسان عن أَنفة فقرآء العرب وإِبآئهم الضيم وشجاعتهم وكرم اخلاقهم . واذا استطلعت تأريخ فقرآء الفرنجة لعهد بداوتهم علمت انهم كانوا كالعرب في الأَنَفة وعزّة النفس والشجاعة واذا استقريت شأْنهم لعهدنا هذا وجدتهم على ما كان عليهِ آبآؤهم من النخوة والمروءة وإِبآء الذل وفقرآؤهم واغنيآؤهم في هذه الصفات شَرَع ولا مجد عندهم فوق مجد العلم . فلو قلت لاحد فلاحيهم ان رئيس الجمهورية مارٌّ من هنا فقف هنيهةً لتراهُ لاجابك فوراً وماذا يهمنَّا منهُ ولو قلت لأفقر صانع عندهم انظر الى يمينك ترَ المستر مُرغان اعظم غنيٍّ في الارض لما التفت اليهِ . ولكن لو قلت لاحدهم هذا المستر آديسُن المخترع المشهور او مركوني او الكاتب آدمُون رُستان او الشاعر سُولّي پرُودُوم لنهض على قدميهِ ووقف ينظر اليهِ باحترام واعجاب بل قد لا يتمالك عن رفع قبعتهِ لتحيتهِ بل قد يصيح بعضهم عاش مركُوني او عاش رُستان على عادتهم ترحيباً بهِ وتعظيماً لقدرهِ . حكى لي بعضهم قال كنت يوماً في مجلس احد كبار الاميركان واعاظم اغنيآئهم المستر مكملّين وكان في العام الماضي نازلاً في فندق شپَرْد في مصر فدخل عليهِ وكيل حكومة

اميريكا في هذا القطر فسلم وقعد ثم دخل عليهِ احد اشراف اغنياء البلجيك ففعل مثل الاول ثم دخل احد كبار الموظفين من رجال الحكومة المصرية للسلام عليهِ من قِبَل الحضرة الخديوية فكان حظهُ حظ الاولين ومكملين قاعدٌ لم يتحرك لاحد . وبعد هنيهةٍ دخل علينا رجل ليس عليهِ شيءٌ من سمات الثروة واهل التنعم فما كاد يقع نظر السيد مكملين عليهِ حتى نهض وانتفض «كما انتفض العصفور بللهُ القَطر» واسرع اليهِ فصافحهُ باشاً واخذهُ من يدهِ فاجلسهُ بجانبهِ يؤانسهُ ويتلطف بهِ كأن لا سواهُ في المجلس. فاخذني العجب مما رأيت وسألت سيدة شريفة كانت بالقرب مني مَن هذا القادم الكريم فقالت هو احد علماء اميريكا . فتحقق لديّ ان القوم لم يبلغوا هذا المقام الرفيع بين امم الارض الاّ لتقديرهم قدر العلم ورجالهِ ومعرفتهم انهُ مفتاح الصنائع والاختراعات وان هذا هو المغناطيس الحقيقي لجذب مال الارض والتنعم بهِ من جميع الوجوه المرضية

وانت اذا انعمت النظر في اخلاق الامم الشرقية لهذا العهد وجدت الجبن والذل متمكنين في الاغنياء والفقراء بالسواء وشذّت عن ذلك الامة التركية وعرب البادية والامة اليابانية وذلك لا لثروتها فانت تعلم ان عرب البادية افقر الناس واليابان اقل الامم ثروةً بل لان عزة الملك وحب الوطن يولّدان الشجاعة والأَنَفة في نفس الانسان وبعكس ذلك الظلم والاستبداد يميتهما بل يميت كل صفةٍ كريمة . وانظر الى حال الامة الصينية وما هي عليهِ من الشقاء والذل حتى ان جيوشهم الجرّارة التي اذا عُدّت جيوش الارض حسبوها كجيوش النمل لا تعرف من طرق الحرب

سوى الهرب وهي فوق ذلك بل لعلّ هذا هو السبب الاول لم تزل تتسكع من الجهل في ظلمات بعضها فوق بعض فلم تغنِ عنها كثرة عددها ولا معادنها ولا ثروة ارضها شيئاً

وهذه الامة اليهودية قد كانت من اعظم الامم بطشاً وحروباً واشهرها شجاعةً وحسبك ان المرأة كانت تخاطر بنفسها لتفتدي وطنها من الاسر او تغلب المتغلبين كما فعلت يهوديت وياعيل وغيرهما ولما ذهب الملك من اليهود واضمحلت قواعدهُ صار بعض رجالهم يبيع وطنهُ واهل مملكتهِ بيع الخسائس كما فعلوا في المغرب لعهد الاندلسيين وفي المشرق لعهد الصليبيين وما ذلك الا لاعتقادهم ان لا وطن لهم ولا ملك بل لِما رسخ في نفوسهم من فقدان عصبية المُلك ولطول استعباد الامم لهم حتى تأصلت الحيلة فيهم دفاعاً عن نفوسهم وحرصاً على الحياة فكانت ثمرتها احتكارهم نصف مال الارض على رأي بعضهم • ومع ذلك فلم تدفع هذه الثروة الطائلة عنهم سهام العائبين لهم بصفات قد يكون كثيرٌ منهم بريئاً منها

ومما تقدم تعلم ان الشجاعة وكثيراً من مكارم الاخلاق لا توجد الا في الامم المالكة الصحيحة الآداب القويمة الاحكام من التي بذل اهلها النفس والنفيس في سبيل الحرية والحصول على العزّة الشمّاء كالامة الاميريكية والامة اليابانية وحسبك ما كان من هذه الاخيرة في العام الماضي من آيات الشجاعة وما قُرنت بهِ من النصر المتتابع والأَنَفَة من ذلّ الاسر حتى كانوا يفضلون عليهِ الموت انتحارا وحتى محوا بهِ عار ذلٍّ لبسناهُ نحن

الشرقيين احقاباً متوالية فما قعد الفقر باليابان عن ادراك المعالي ولا كان غنى الروس وضخامة ملكهم وكثرة عددهم وكبر جثتهم دافعاً بلاء الاندحار وعار الانكسار الناشئ عن سوء التدبير واذا امعنت في البحث عن السببين وجدتهما نتيجة امرين هما انصباب اليابان على طلب العلم وتقاعد الروس عنهُ

قسطاكي الحمصي

عبادة الشمس

ذكرنا في بعض اجزاء السنة السادسة ان علماء الهيئة من الفرنسيس احتفلوا احتفالاً كبيراً بعيد الشمس احتشدوا لهُ في برج أيفيل الشهير في الحادي والعشرين من شهر يونيو وهو اوان المنقلب الصيفي وقد صار ذلك لهم سُنّةً مطّردة في مثل هذا التاريخ من كل سنة . والظاهر ان الالمان ابوا الا ان يعارضوهم في ذلك الا انهم لم يقفوا عند الحدّ الذي وقف عندهُ الفرنسيس فقد جاء في احدى المجلات العلمية الفرنسوية ان نفراً منهم قد سنّوا عبادةً حقيقية للشمس وضعوا قواعدها سنة ١٩٠٢ وهم جماعةٌ من طائفةٍ المانية في استراليا نازلة في بريطانيا الجديدة من القارّة المذكورة . ورئيس هذه الطائفة رجلٌ منهم يقال لهُ اوغسط أنجلهرد وهي تتناول الرجال دون النساء وعددها بين خمسة عشر وعشرين رجلاً . وقد اختاروا ثلاثةً منهم سمّوهم باخوة الشمس هم الموكلون باقامة الاحتفالات الدينية حين يقيمها رئيسهم المذكور وهو الكاهن الاعظم ولا يحضر هذه الاحتفالات سواهم

ويرى رجال هذه البدعة انهم قد وضعوا للناس ديناً جديداً لا بد ان يكون لهُ في المستقبل شأنٌ عظيم وفي اعتقادهم ان مذهبهم سيعمّ الارض كلها وان اوربا ستلخع الدين المسيحي وتدين بعبادة الشمس . وقد رسخ هذا الاعتقاد في ذهن انجلهَرْد وتلاميذهِ حتى ابتاعوا جزيرةً من جزائر دوك ديُورك يقال لها كاباكُون ليحتفلوا فيها باسرار دينهم الجديد وتكون مهداً لهُ ينتشر منها الى سائر الارض

ورجال هذه الطائفة لا يلبسون ثوباً وينذرون التقشف في المعيشة ولا يأكلون الا الفواكه وجوز النارجيل ولا يشربون الا لبن النارجيل ويقضون سحابة النهار تحت اشعةّ الشمس المجرقة ويناموُن ليلاً تحت السمآء مضطجعين على الرمال على شواطئ الجزيرة . على ان الظاهر ان انتقالهم الى هذا النوع من العيشة قد اثر في ابدانهم فمات اناسٌ منهم في جملتهم انجلهَرْد المذكور رأس هذه الطائفة وكاهنها وكانت وفاتهُ من عهدٍ قريب وبموتهِ تخاذلت عزائم البقية من جماعتهِ ولعلهم لا يبطئون حتى تنحلّ جامعتهم . فسبحان من جمع القلوب على عبادتهِ وحجب العقول عن معرفة كنههِ لا اله الا هو الواحد الصمَد

البنفسج والسرطان

تناقلت الجرائد العلمية والسياسية هذا الخبر المفاجئ من البلاد الانكليزية فكان بشرى لكل من خالط جوفهُ السرطان بان غلاية ورق البنفسج هي الدوآء الشافي دون مشراط الجراح . وقد رنّ هذا الخبر في

انحآئنا وتحدثت بهِ الالسن واخذ الناس في جمع الورقِ لكل مصاب بهذا الدآء العقام

ولقد اشتهر من امر هذا الاكتشاف ان مصدرهُ سيدة انكليزية ما عرفهُ من قبلها الا الذي اوصاها باستعمالهِ ... على انني بينا كنت اطالع في كتابٍ طبيٍّ قديم عندي قد خُطّت صفحاتهُ منذ قرون عديدة عثرت فيهِ على ان جالينوس الطبيب اليونانيّ الشهير وغيرهُ من اطباء العرب قد استعملوا ورق البنفسج ضماداً واستعملوا غلايتهُ شرباً لكافة اورام المعدة المعضلة والاورام السرطانية وامراض الرحم ايضاً وكانوا يخلطونهُ احياناً باعشاب اخر مذكورة في هذا الكتاب ولكن الظاهر انهم كانوا يقتصرون في الغالب على البنفسج لانهم وجدوا انهُ اقرب فعلاً من غيرهِ . وعليهِ فلا يبعد ان يكون هذا العلاج قد اتصل باهل اوربا من العرب في الاندلس ومعرفتهُ قديمة عندهم ولكن اهملهُ اطبآؤهم كما اهملوا غيرهُ من فوائد الطب القديم فلم يسطروهُ في كتبهم وبقي يُتناقل بين عامتهم الى هذا اليوم . على انهُ كيفما كان الحال فلا ينكران في نشر الخبر المذكور خدمةً للانسانية وانما اردت بما ذكرتهُ الايذان بفضل الاقدمين وهو ولا ريب مما يثبت صحة الانتفاع بهذا العلاج والله الشافي ناصيف عطية

مطالعات

خليج البلطيك ـ ما زالت دولة روسيا تهتمّ منذ زمن بانشآء خليج يصل بين شمالي هذه المملكة وجنوبيها بحيث تتمكن سفن البحر الاسود

من بلوغ البلطيك بدون ان تدور الدورة العظيمة التي تلزمها من طريق البصفور واذ ذاك يمكنها اخراج سفنها التجارية والحربية جميعاً وهو اهمّ ما ترمي اليهِ هذه الدولة

وقد وضع رسم هذا العمل الكبير مهندس روسي يسمى ڤون روكتّشيل وسيكون طول الخليج من احد طرفيهِ الى الآخر نحواً من ٢٣٧٥ كيلومتراً وان كانت المسافة بين الطرفين لا تتعدى ١٣٠٠ كيلومتر وذلك انهُ لا بد من ان يُضطرّ الى العدول عن الخط المستقيم لاستخدام ما هناك من الانهار التي يمكن ركوبها بعد اصلاحٍ قليل . ويقدَّر ان السفن تستطيع ان تمخر في هذا الخليج بقوة ٨ عُقَد فتصل من البحر الاسود الى البلطيك في مدة اسبوع مع ان هذه المسافة لا تُقطَع الآن الا في ستة اسابيع . اما نفقات هذا العمل فستبلغ فيما قدّروا نحو ٩٤٠ مليون فرنك

تراجُع الجليد في الارض - ظهر من مباحث علمآء الآثار الجوّية ان الجليد قد تقلص امتدادهُ في الارض عامةً كما ثبت من تفقد حدودهِ في سويسرا وساڤوآ ودُوفيناي وجنوبي نروج وفي القوقاس وألَسكا وغرينلند وغيرها وقد تراجع في هذا الموضع الاخير في مدة سنتين ما يقرب من مسافة ٤٠٠ متر . وفي ظن بعضهم اننا قد قربنا من نهاية دور من الادوار الجليدية وحينئذٍ فاما ان يستمرّ تقلصهُ حتى ينحصر جملةً واما ان يبتدئ بدور جديد فيعود الى الامتداد وكلا الامرين لا يمكن تحقيقهُ الآن لانهم لم ينتبهوا لهذه الاقيسة الا منذ عهدٍ قريب

جزيرة جديدة — ظهرت جزيرة جديدة في جنوبي اليابان سميت نوشيما وكان ظهورها ما بين ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٤ و ٢ يناير سنة ١٩٠٥ ومحلها بقرب جزيرتي إيڤو وبوتّين ٠ وقد ابتدأ ظهورها بانفجارات شديدة متواصلة ظهر على اثرها سحبٌ كثيفة من دخان اسود وابيض كانت تنبعث من قلب البحر ٠ وقد برزت الجزيرة فوق الماء في ٥ دسمبر ولبثت ترتفع وتتسع حدودها مدة شهر فكان محيطها ٥ كيلومترات وارتفاعها فوق الماء ١٦٠ متراً . وفيها بحيرة ماء حارّ الى شماليها ٠ وقد قصدها بعض الفاحصين ونصبوا فيها علَماً ونقشوا على احد صخورها « ارضٌ جديدة لليابان »

انما المنفيْ وحيد

(معربة عن الفرنسوية)

تقاذفَ ذلك المنفيَّ بِيدُ　　فهام بلا هُدًى وهو الشريدُ
فهل يُقضَى لهُ قدرٌ سعيدُ　　فيدنو ذلك السفرُ البعيدُ
ويرجع ذلك العيش الرغيدُ

* * *

لقد طُفتُ المعالم والمجاهل　　وشاهدتُ القبائل والمنازل
وكنتُ لما رأيتُ هناك جاهل　　وهم لا يعلمون مَنِ الطريدُ
لعمركَ انما المنفيْ وحيدُ .

اقولُ وكاد ينهار النهارُ　　بوادٍ لا يطيب بهِ قرارُ
هنيئاً للذي تحويهِ دارُ　　ويمرح في مغانيهِ الوليدُ

لعمرك انما المنفيْ وحيدُ

إلامَ إلامَ ايتها السحائب تطاردكِ العواصفُ كالركائب
لقد امسيتِ في كفّ النوائب نظيري اذ تهدّدني الوعيدُ

لعمركِ انما المنفي وحيدُ

أرى الازهار مؤنِقة البهآء وليس لها بعيني من رُوآء
لأني عن رياض الاهل ناآء فأنعمُ عيشةٍ وطني السعيدُ

لعمركَ انما المنفي وحيدُ

خرير جداولٍ فوق البقاعِ ولكن ليس يطربني استماعي
وليس مذكّري بسوى التياعي وقد شطّ المزارُ ولا يعودُ

لعمركَ انما المنفي وحيدُ

ويقرعُ اذنيَ الصوتُ الرخيمُ وقد بَسَمَتْ لهُ الثكلى الرؤومُ
ولكن ليس تبرحني الهمومُ فمن الحانهِ حزني يزيدُ

لعمركَ انما المنفي وحيدُ

وكم من سائلٍ لي عن بكآئي شرحتُ لهُ الذي بي من عناآء
فلم يكُ لي شريكٌ في بلآئي وغير اخيك فيهِ لا يفيدُ

لعمركَ انما المنفي وحيدُ

وغير حماكَ ليس بهِ صديقُ وليس أبٌ وليس أخٌ شفيقُ
ولكن ثمّةَ الحُبُّ الوثيقُ نعم وهنالك العهد الاكيدُ

يُرامُ وانما المنفي وحيدُ

*
* *

كفى يا ايها الباكي انتحابُ　بدارٍ كل ما فيها عذابُ
فليس لنا بدنيانا صحابُ　ولكن سوف يجمعنا الخلودُ
وفيهِ يضمنا وطنٌ جديدُ

عيسى اسكندر المعلوف
مدرس آداب اللغة العربية في الكلية الشرقية

اسئلة واجوبتها

بيروت — بينما كنت اطالع في كتاب وقاية الشبان للدكتور سعيد ابي جمرة عثرت فيهِ على ما نصّهُ « سترى في هذا الكتاب كلمة (سِفلِس) مصرَّفةً فنقول سفاس وسفلسَت ومسفلس ومسفلسة وهلمَّ جرًّا مما لا تجدهُ في « قواميس » اللغة العربية فان المراد من اللغة افهام المراد من كلام الكاتب وادخال كلمات اعجمية الى لغتنا دليل على ارتقآئها لا على انحطاطها كما يتوهم البعض » . فهل يجوز تصريف كلمة سفلس كما يقول وهل يصحّ ان يُعَدّ ادخال كلمات اعجمية الى لغتنا دليلاً على ارتقآئها ارجو الجواب على ذلك ولكم الفضل　احد قرآء الضيآء

الجواب — اما تصريف كلمة (سِفلِس) اي اشتقاق فعلٍ منها يصرَّف كما تصرَّف بقية الافعال فهو جائز بالاجماع بعد استعمال الاسم المشتقّ منهُ والحاقهِ بالاوضاع العربية . وهو كثيرٌ في اللغة قديماً وحديثاً ومن امثلتهِ قولهم سُرسِم الرجل بالبنآء للمجهول اذا اصيب بالسِرسام وهو لفظٌ فارسيٌّ معرَّب ومعناهُ مرض الرأس . ومثلهُ قولهم بُرسِم من البرسام

ومعناهُ مرض الصدر والرجل مُسرسَم ومُبرسَم . وقولهم دَرْفَسَ اي حمل الدِرَفس بوزن قِمَطر وهو العَلَم الكبير وهذا ايضاً فارسيٌّ معرَّب . وفَرْجَنَ الدابّةَ اي حسَّها وهو مأخوذ من الفِرْجَوْن بكسر اولهِ وفتح الجيم وهو المحسّة . وجآء الدِهقان بمعنى رئيس الاقليم وقيل منهُ دهقنوا الرجل اذا جعلوهُ دهقاناً . وفي القاموس «النَيرُوز اول يوم من السنة معرّب نَوْرُوز . وقُدِّم الى عليٍّ شيءٌ من الحَلاوَى فسأل عنهُ فقالوا للنيروز فقال نَيْرِزُونا كل يوم . وفي المِهرَجان قال مَهْرِجُونا كل يوم» . وفي شعر ابن الوردي «يا من تَبَرْمَكَ صبُّهُ في عشقهِ» والامثلة في ذلك لا تُحصَى . وبقي هنا ان نقول انهُ ينبغي ان يكون الفعل «سُفلِس» بصيغة المجهول قياساً على امثالهِ من هذا الباب كما يقال حُمَّ من الحُمَّى وصُدِعَ من الصُداع وزُكِم من الزُكام وكما رأيت من قولهم بُرسِم وسُرسِم الى غير ذلك

واما أن ادخال كلماتٍ اعجمية الى لغتنا يُعَدّ دليلاً على ارتقآئها ففيهِ نظر لكنهُ مما تلجئ اليهِ الضرورة حيث لا يتيسر وجود لفظٍ عربيّ قديم او مُحدَث يقوم مقام الاعجميّ والا فان ادخال اللفظ الاعجميّ مع وجود لفظٍ عربيّ بمعناهُ كاستعمال الأُوزطي مثلاً في مكان الأَبهر والأَلبومين مكان الهُلام والكاوتشوك مكان المطّاط والأَسيد مكان الحامض وكقول بعضهم اندروميدا مكان المرأة المسلسلة كل ذلك يُعَدّ دليلاً على انحطاط اللغة كما لا يخفى على ذي بصيرة

فكاهات

الحب البنوي (١)

على بُعد ست مئة غلوة من مدينة توبلسك عاصمة سيبيريا بلدةٌ تدعى سايمكا جعلتها حكومة روسيا منفى للمحكوم عليهم من رعاياها . ويجاور تلك البلدة غابةٌ كبيرة تكثر فيها المستنقعات والى جانبها بحيرةٌ صغيرة قلّ ان يفارق الجليد سطحها وتهبّ الرياح القارسة من الشمال حاملةً قطع الثلج فتنثرها على الاشجار وتلطم بها الاوراق فيسمع لحركتها انينٌ مؤثر يرنّ في ذلك الفضآء الموحش كأنهُ جرس حزن يُقرع أيذاناً بفقد السرور وضياع الآمال من قلوب المنفيين في ذلك المكان

وكانت تسكن في ذلك القفر اسرة بولونية مؤلفة من والدٍ كهل وزوجتهِ وهي لا تتجاوز الثلاثين من العمر وابنةٍ لهما في مستهلّ ربيع الحياة . وكان التضييق على هذه الاسرة بالغاً اشدَّهُ فلم يكن يُسمح لاحدٍ من افرادها باجتياز حدود ذلك القفر او الدنوّ من سايمكا والاختلاط بسائر المنفيين أو قبول احد في منزلهم فكانت علائم الحزن واليأس بادية في وجه ذلك الاب التعس مهما اجتهد في كتمان شعورهِ ولم تكن قرينتهُ بأقلّ منهُ حزناً والتياعاً غير انها كانت تبالغ في اخفآء كمدها وتظهر امام زوجها بمظهر البشاشة والابتسام قصد ان تخفف من بلاياهُ وتلطف من احزانهِ . ولم يكن ذلك الا ليزيد في عذاب بطرس زوجها اذ يرى نفسهُ السبب في تنغيص عيش قرينتهِ وفلذة كبدهِ وكثيراً ما نصح لها ان تبقى في وطنها بعيدةً عما هو فيهِ من البؤس والشقآء رحمةً بها وشفقةً على ابنتها التي لم تكن قد تجاوزت بعدُ سنتها الرابعة فأبت الاّ ان ترافقهُ الى منفاهُ وتشاركهُ في الضرّآء كما كانت تقاسمهُ السرّآء

---

(١) معربة بقلم السيدة لبيبة هاشم

وكانت فتاتهما واسمها اليزابيت قد بلغت في عهد روايتنا اربعة عشر ربيعاً وهي باهرة الجمال لطيفة الاخلاق كوردة في كمها ينبعث طيب عرفها الى قلب ذينك الوالدين فينعشهما ويُسمع لضحكها قهقهة اشبه بزقزقة العصافير وألذ وقعاً من اجمل الالحان . وكانت تقضي اكثر أوقاتها في الخلاء تجري فوق تلك الهضاب وتجني من ازهار الخريف ما تجود بهِ الطبيعة بعد انقطاع الثلوج ثم تعود الى المنزل فتأخذ بعض الدروس عن والدها ثم تساعد والدتها في ترتيب ذلك المنزل الصغير . وكانت اليزابيت حتى تلك الساعة تحسب نفسها اسعد الناس حالاً بتلك المعيشة البسيطة ولكنها ما لبثت بعد ان بلغت هذه السنّ ان استيقظت مداركها فتنبهت لذلك التضييق الذي لا بدّ ان يكون لهُ سبب اوجبهُ وجعلت تستوضح اباها ذلك السرّ الذي اشكل عليها حلهُ فأعلمها انهم منفيون ولم يشأ ان يزيد شيئاً على ذلك حتى لا يكدّر صفاء حداثتها بمعرفة ما وقع عليهم من الجور وما سيموا من ضروب الذل والامتهان بعد ما كانوا فيهِ من العز ورغد العيش

ومن تلك الساعة تبدلت هيئة اليزابيت وغلب عليها السكوت والتفكر واصبحت حين تخرج من المنزل لا تلتفت الى طيورها وازهارها بل تلزم البكاء والابتهال الى الله ان يعاونها على انقاذ والديها لانها رأت نفسها الشخص الوحيد الذي يمكن ان ينالهما مساعدة بواسطتهِ . وما زال هذا العزم قبلة افكارها ووجهة آمالها مدة سنتين كاملتين وهي في كل يوم تزداد جرأةً وتصميماً واخيراً عزمت على السفر الى بطرسبرج والتماس العفو لابيها من القيصر . غير انهُ بقي عليها ان تعرف اسم والدها الحقيقي وموطنهُ والسبب الذي نفي من اجلهِ فتوسلت الى ابيها يوماً ان يوضح لها ذلك فأجابها باسماً ان وطني حيث تكونين انتِ واسمي ابو اليزابيت الجميلة . فلزمت الصمت ورأت ان الصبر اولى بها . وكانت لعهد اربع سنوات مضت قد عرفت شاباً يدعى سمولف ابن حاكم سايمكا وكان قد وُكل اليهِ امر المنفيين وهو فتى في الثالثة والعشرين من العمر تبدو عليهِ ملامح النجابة والشهامة . وذلك انهُ اوغل في الغابة يوماً اذ كان يصيد واتفق ان اباها كان في الغابة ايضاً وقد وقع في خطر من

الوحوش الضارية فأنقذهُ منهُ بشجاعة فائقة واوصلهُ الى منزلهِ فاستقبلتهُ اليزابيت ووالدتها بما يستحقهُ عملهُ من الشكر ومنذ ذلك الحين كانت اليزابيت لا تنفك عن الافتكار فيهِ واثقةً بأنهُ الشخص الوحيد الذي تنال بمعاونتهِ ما تتمنى من انتشال والديها من تلك الوهدة

وحدث في بعض الايام ان خرج والدها للصيد بعد ان انقطع عنهُ اعواماً اجابة لتوسلات قرينتهِ لانها كانت تخشى وقوعهُ في خطرٍ ثانٍ فسار واعداً بسرعة العودة ولكن مضى ذلك النهار و بطرس لم يعد حسب وعدهِ. فقلقت زوجتهُ وابنتهُ اشدّ القلق وخرجتا تبحثان عنهُ وما زالتا سائرتين الى ان كلت قوى الام فسقطت خائرة العزم وعندئذٍ سمعتا صوت طلق بارود فاسرعت اليزابيت الى جهة الصوت وهي لا تشك انهُ صادر من يد والدها اذ ما من احدٍ يطرق تلك الاماكن. ولكنها وقفت مبهوتةً اذ رأت على نور الشفق فتى لا تعرفهُ فتقدمت اليهِ وسألتهُ عن والدها فاجابها الشاب اني لا اعرف والدكِ يا بنية ولكن اعلم انهُ يستحيل عليكِ البحث عنهُ في مثل هذا الوقت وهذه الاماكن المخيفة. وكان المطر قد بدأ يهطل والظلام يمد رواقهُ والريح تهب بقوةٍ معلنةً قرب حدوث الزوبعة. فاجابت اليزابيت وقد خنقت صوتها العبرات اني لا اخاف شيئاً في العالم الا فقد والدي. ثم حوّلت وجهها لتنصرف فاستوقفها الشاب وقد اثرت فيهِ حالتها كما اثر فيهِ جمالها وشجاعتها وسألها عن اسم والدها فقالت بطرس سبرنجر. فقال اني اعرفهُ ولقد كنا معاً منذ ساعة ثم افترقنا وسار في طريقهِ نحو المنزل ولا بد ان يكون قد وصل اليهِ الآن فاطمئني. فشكرتهُ الفتاة وعادت مسرعةً لتزف الى والدتها تلك البشرى وما هي الا بضع دقائق حتى كان الثلاثة متعانقين عند باب المنزل وعلى مقربة منهم ذلك الشاب الذي تقابل مع اليزابيت وقد دفعهُ عامل الاهتمام بامرها الى اللحاق بها والاطمئنان عن وجود ابيها. و بينما هم كذلك التفت بطرس فرأى الشاب وكان لم يزل واقفاً يمسح دمعتين سقطتا على خدّيهِ لدى ذلك المشهد المؤثر فناداهُ قائلاً لقد تأخرت يا عزيزي سمولف عن الرجوع وليس في وسعي ان اضيفك في منزلي.

فصاحت المرأتان وهل المسيو سمولف منقذك الفاضل هنا ثم اقبلتا نحوهُ وكانت دموع المرأة تترجم عن عواطف شكرها وسرورها و بادرتهُ اليزابيت قائلةً ثق يا سيدي اننا ما برحنا منذ اربع سنوات نردد ذكرك ونسأل الله ان يباركك ويكافئك عنا خيراً

فاجاب سمولف بمنتهى الاحتشام لقد كافأني باكثر مما استحق يا سيدتي اذ ساقني اليكم وسمح لي بلقياكم . و بعد ان تبادل واياهم بعض الاحاديث سار مشيعاً بادعيتهم الحارة وتوالت زياراتهُ بعد ذلك مدفوعاً بعامل الشوق لمشاهدة اليزابيت التي لم تفارق صورتها مخيلتهُ منذ تلك الساعة

وقابلتهُ يوماً اليزابيت على انفراد فسألتهُ ان يوافيها الى قرب البحر حيث اعتادت ان تصرف اكثر اوقاتها . فلبى طائعاً وفؤادهُ يرقص طرباً لانهُ استشفَّ من وراء هذا الموعد مع ماكان يؤنسهُ من انعطافها نحوهُ وشدة سرورها بلقياهُ انها تميل اليهِ فصمم على ان يكشف لها قلبهُ ويعقد معها عهداً على الاقتران . وفي الموعد كانت اليزابيت قد سبقتهُ الى المكان المعين فحين رأتهُ صاحت بصوتٍ يمازجهُ السرور لو تعلم يا سيدي باي شوق انتظر قدومك . فبرقت اسرة الشاب وقبل ان يجيبها قالت اصغِ لي يا مسيو سمولف فاني في حاجة اليك لان تعاونني على انقاذ والدي من ذل النفي فهل تعدني بذلك

فبهت سمولف لدى استماعهِ تلك العبارة التي على بساطتها كانت كافية لتبديد آمالهِ والذهاب ببهجة امانيهِ غير انها لم تغير شيئاً من عواطفهِ بل زادتهُ احتراماً لتلك الذات الملائكية التي كانت مشتغلة بما هو اسمى من الحب فجثا عند قدميها واقسم لها على ما طلبت . فبكت اليزابيت تأثراً وشرعت تقص عليهِ حديث نشأتها في ذلك القفر واوضحت لهُ مكنونات قلبها وتصميمها على السعي في سبيل الحصول على العفو عن ابيها الذي لا تعلم سبباً من اسباب نفيهِ ولكنها تعتقد براءتهُ من كل تهمة . فاجابها اني سعيد يا اليزابيت بما نلتهُ من ثقتكِ بي وما عليكِ الا ان توضحي لي نوع المساعدة التي تريدينها مني فتجديني مستعداً الان اريق دمي في سبيل تحقيق

امانيكِ . فقالت ان ما اطلبهُ هو معرفة اسم ابي الحقيقي واسم بلدهِ ونوع التهمة التي نفي بسببها ثم ايضاح السبيل الذي ينبغي ان اسلكهُ لكي اصل الى مقابلة القيصر والمعلومات التي احتاج اليها في قطع المراحل الشاسعة التي بيني و بين بطرسبرج والاماكن التي يمكنني ان آوي اليها . وقبل كل شيء اود ان تضمن لي رضى والدك عن سفري هذا فلا يسخط على ابي ويأخذهُ بذنبي . فجعل سمولف اولاً يبين لها صعوبة هذا السفر وما فيهِ من المشقات والاخطار حتى اذا رآها لا تبالي بشيء من ذلك ولا ترجع عن عزمها وعدها بان يعود اليها بعد اسبوع حاملاً جميع المعلومات التي تطلبها . وختم بقولهِ ان ابي شهمٌ غيور لا يستاء من عملكِ ولا ولا يرفض ان يدعوكِ ابنةً لهُ . . . ثم قال سامحيني يا اليزابيت اذا رأيتِ لساني يبوح بما انتِ في شاغلٍ عن سماعهِ ولكن هو قلبي الذي ثمل بحسن سجاياكِ كما هام برائع جمالكِ فاصفحي وانسي كلماتي الآن ولكن اذا اتى اليوم الذي تنقشع فيهِ غيوم احزانكِ ويزول ما يكدر صفاء بالكِ فاذكري محبًّا تمنى ان يقاسمكِ حياة الوحدة والذل مفضلاً العيش بقربكِ على العالم وما فيهِ من المجد والمسرّات

ومضى اسبوعٌ على تلك المقابلة كان في عيني اليزابيت اطول من سنة وسمولف لم يرجع اليها كما وعد . ثم مضى الاسبوع الثاني والثالث فقلقت افكارها وخشيت ان يكون قد نسيها او عرض لهُ ما يعرقل مساعيها ومع ذلك فانها لم تقنط من رحمة الله ولا انفكت عن الابتهال اليهِ تعالى ان يأخذ بيدها و يسدد خطواتها . وكان والداها ملاحظين حركاتها وشاعرين باحزانها وقلب كل منهما يتقطع جزعاً . ورآها ابوها يوماً تبكي بمرارة فضمها الى صدرهِ وسألها عن شأنها فلم تقوَ على الكتمان و باحت لهُ بما تنويهِ فبكى الاب تأثراً واعجاباً ولم يجد ما يجيب بهِ تلك الابنة التي افحمتهُ بحديثها وتوسلاتها التي كانت تشف عن نُبل اخلاقها وعلو نفسها

و بينما هما كذلك اذ سمعا صوت وقع اقدامٍ امام المنزل فنهض الوالد لاستقبال الوافدين واذا شيخٌ وقور يتبعهُ حاشية من الخدم فدخل وترك حاشيتهُ في الخارج . و بعد ما سلم وجلس عرَّفهم بنفسهِ انهُ ابو سمولف ثم نظر الى اليزابيت باسماً وكانهُ

قد قرأ ما يجول في عينيها من مرّ الانتظار فوجه حديثهُ الى والديها قائلاً اني اهنئكما بهذه الدرة الفريدة التي يليق بوالديها ان يفخرا بها و يباهيا بآدابها . ثم اقترب من الفتاة ودفع اليها رسالة من ابنهِ فتناولتها منهُ ولكنها لم تجسر ان تفتحها وتقرأها فدفعتها الى والدها فاخذها وهو يبتسم اعجاباً بادبها وذكائها وفض الرسالة واذا هو يقول فيها انهُ لم يتمكن من القيام بوعدهِ لها اذ صدرت اليهِ اوامر القيصر بالسفر سريعاً فلم يسعهُ الا المبادرة دون ان يتمكن من وداعها وانهُ سيعود بعد مدة قصيرة فينبغي ان لا تبرح سايمكا الى ان يعود فيسافر معها . و بعد ان اتمّ ابوها قرآءة الرسالة التفت اليهِ والد سيمولف وقال ان ولدي ربما تطول غيبتهُ عدة اشهر ولذلك ارى ان تسافر اليزابيت الآن ولا يبعد ان تصادف سمولف في بطرسبرج او في موسكو وقد عينت لمرافقتها كاهناً طاعناً في السن ستجد في شيخوختهِ آمن رفيق تنتفع من خدمتهِ وحسن اختبارهِ وليكن ذلك بعد اسبوع . واودّ منكم ان يبقى هذا الامر مكتوماً لا يعلم بهِ احد لئلا يجرّ عليّ ما لا نجاة لي منهُ . ثم نهض الشيخ فودعهم وانصرف بعد ما شكرتهُ اليزابيت ووالدها من اعماق قلبيهما

اما والدة اليزابيت فلما علمت بالامر صاحت من فؤاد مقروح ماذا اسمع . . ابنتي تبتعد عني . . ابنتي تسافر الى بطرسبرج . . فجثت اليزابيت على قدمي والدتها وجعلت تتوسل اليها بكلام يلين لهُ الجماد وتستحلفها باسم السمآء و بحبها ان لا تمنعها من اتمام هذا الواجب المقدس . اما هي فضمتها الى صدرها قائلةً لا تكسري قلبي يا اليزابيت فاني احتملت كثيراً من متاعب الحياة وفي استطاعتي ان احتمل اكثر من ذلك اما فراقكِ فلا قدرة لي على احتمالهِ . وقال ابوها والدمع ينحدر من عينيهِ اني لم اكن اعرف للضعف معنى يا ولدي فجئتِ تعلمينيهِ الآن

وما زالت اليزابيت تستعطفهما الى ان بدت على وجه ابيها امارات الاقتناع فنظر الى زوجتهِ وقال لها بصوت تخنقهُ الدموع لندعها تسافر ابنتها العزيزة فان الله الذي الهمها القيام بهذا الواجب قادر ان يحرسها . فقالت كلاّ اني لا اوافقك على ذلك ولا ارضى ان اعرّض ابنتي لاهوال هذا السفر البعيد واقدمها فريسة لانياب

البرد والجوع والشقآء واعيش بعد ذلك لابكيها وارثيها . ثم علا نحيبها وعادت تضم فتاتها الى صدرها كأنها خشيت عليها ان تختطفها ايدي البعاد . فقالت اليزابيت معاذ الله ان اسافر بدون رضاكِ يا اماه ولكن لنصلِّ الى الله عساهُ ان يلهمكِ ما بهِ خيرنا جميعاً . ثم جثا الثلاثة واشتركوا في صلاةٍ حارة ولما رفعت اليزابيت رأسها عند نهاية الصلاة لمحت في وجه والدتها علائم القبول فلم تجسر على مفاتحتها بشيء وتركت الامور تجري في مجراها

وبعد مضيّ اسبوع حضر الكاهن وما وقعت عينا الوالدة عليهِ حتى صاحت جزعاً وشعر الكاهن بثقل مصيبتها فجعل يعزيها بكلام رقيق . وخلت اليزابيت بوالدها تلك الليلة فأطلعها على حقيقة امرهِ وان اسمهُ الحقيقي ستانسلاس بونوسكي . اما الذنب الذي ارتكبهُ فهو شدة حبهِ لوطنهِ وذلك انهُ في بعض الحروب التي اثارتها روسيا على بولونيا كان في جملة الحزب الذي قاومها وهيج الشعب ضدّها ولكنهم وقعوا في يدها بعد ان استولت على القسم الذي كانوا فيهِ وانفذت فيهم نقمتها وكان نصيب ستانسلاس ان سُجن في بطرسبرج حولاً كاملاً ثم صدر الامر بنفيهِ الى سيبيريا . قال وكنتِ اذ ذاك طفلةً فأبت والدتكِ الا ملازمتي في هذا السفر الشاق الذي قطعناهُ مشياً على الاقدام فوق الثلوج وانتِ على ذراعي والدتكِ ومن حولنا الجنود تسوقنا سوق النعام . ثم توقف وزفر زفرةً حارة وقال مسكينة هذه الزوجة الفاضلة كم قاست لاجلي من الآلام والهوان فهي التي بدلت مرارة وحدتي بحلاوة قربها وفرجت همي بعذوبة الفاظها فاذا كنت قد ذقت شيئاً من السرور في كل هذه المدة فبمجاملتها لي واذا رغبت في النجاة فلكي اقوم لدبها ببعض المكافأة واقابلها بما ينسيها هذا الشقآء

وقضت اليزابيت اليوم التالي في اعداد ما يكفيها من الزاد بضعة ايام . ولما كان المسآء جثت وطلبت الى والديها بصوتٍ خافتٍ ان يباركاها ولما اقترب والدها ضغطت على يدهِ ففهم ان ذلك آخر وداع فجمد الدم في عروقهِ واحتبس صوتهُ . ثم نظرت الى والدتها وقالت وانتِ يا اماه لمَ لا تباركيني . فأجابتها غداً يا ولدي .

قالت ولمَ لا يكون ذلك الآن بل في كل يوم وكل ساعة . فتقدمت ووضع الزوجان ايديهما على رأس الفتاة الجاثية واشتركا في صلاة حارّة ممزوجة بالدموع

وما انبثق فجر اليوم التالي حتى تأبطت اليزابيت كارة ثيابها وزادها وخرجت مع الكاهن خلسةً فما طلعت لها الشمس حتى كانا قد قطعا مسافةً طويلة . وقضى المسافران ثلاثة اشهر على الطريق صادفا في اثنآئها كثيراً من المشقات والاتعاب واخيراً مرض الراهب من تأثير التعب والبرد فأوت بهِ اليزابيت الى فندقٍ صغير في سابادول ولم تطل ايام المريض فانتقل الى رحمة ربهِ تاركاً تلك الفتاة الشقية في اسوأ حال وقد سقطت عند سريرهِ غائبةً عن الوجود . وفي تلك الفترة اتى صاحب الفندق وبحث في امتعتهما فوجد كيساً من النقود كان ابو سمولف قد سلمهُ الى الكاهن ليستعين بهِ مع رفيقتهِ في السفر فاختلسهُ وادعى بعد نهاية الدفن انهُ انفق ما فيهِ من النقود على تجهيز الميت ودفنهِ ولم يبقَ منها سوى ثلاث روبلات فتناولتها اليزابيت شاكرة وكانت جميع ما تملكهُ من النفقة التي تبغي الوصول بها الى بطرسبرج

وواصلت المسير بعد ذلك وحدها غير مبالية بما كان يعترض سبيلها من المشقات والمخاوف الى ان وصلت الى موسكو وقد مضى عليها تسعة اشهر . فرأت تلك العاصمة غاصة بجماهير الناس وسمعت لحركتهم جلبةً وضوضاة يمازجها الهتاف وصوت اطلاق المدافع . فسألت بعض المارّة عن معنى ذلك فاجابها اننا نحتفل اليوم بقدوم القيصر . فقالت وهل القيصر هنا او ليس هو في بطرسبرج . فقال ألا تعلمين انهُ قادم للاحتفال بتتويجهِ في كنيسة موسكو . فخفق فؤاد اليزابيت سروراً بقرب الامل وهتفت بالشكر لله على تلك النعمة . وكانت قد كلّت قواها من طول المسير وعضها الجوع بنابهِ لانها كانت لم تذق طعاماً ذلك النهار وعبثاً طرقت منازل بعض القوم تطلب القوت والمأوى فلم يكن من يرثي لها او يجيب سؤالها . وشعرت بانها لم تعد تقوى على احتمال ذلك طويلاً ولم تشأ ان تستسلم لليأس والهلاك لانها رأت حياتها ليست لها ويلزمها ان تحافظ عليها . وكان الظلام قد اقبل يجر وراءهُ زمهرير الرياح وزمزمة الرعود وبينما هي هائمة من شارع الى آخر اذ احدقت بها شرذمة

من الجند وجعلوا يسألونها عن امرها بكلمات لم ترق نغمتها لتلك الفتاة الطاهرة وهموا ان يقتادوها الى المخفر لانهم ظنوها من اهل الريبة . واتفق في تلك الساعة ان مرَّ من هناك رجل من اماثل القوم يقال لهُ جان روسي وسمع كلامهم وكلامها فاخذتهُ الشفقة عليها وسأل الجنود ان يسمحوا لهُ بها لانهُ استشفَّ من لهجتها انها من ذوات الصون فاجابوا طلبهُ وسار بها الى منزلهِ حيث عاملتها قرينتهُ بكل تلطف وحنان . وبعد ان اكلت واستراحت شرعت تقص على مضيفيها تاريخ حياتها وسبب قدومها حتى اذا علما انها آتية لطلب العفو عن والدها قال لها جاك انهُ غداً سيُحتفل بتتويج القيصر فعليكِ ان تقفي في طريقهِ وهو داخل الى الكنيسة وترمي بنفسكِ عند قدميهِ طالبة العفو واكون انا حينئذٍ برفقتكِ فآخذ بيدكِ واعضدكِ فتشجعي

ففاضت عينا اليزابيت بدموع الشكر وقالت ليسمع الله لك وليباركك والداي .

ولما اشرق نور الصباح تردت اليزابيت بثوبٍ اعارتها اياهُ ربة البيت وسارت الى جنب جاك خافقة القلب ثابتة القدم الى ان انتهيا الى الكنيسة . فتسللا بين جماهير الناس ودخلا حتى وقفا على مسافة قريبة من العرش وتمكنا من مشاهدة القيصر والقيصرة وهما داخلان حتى اذا استقرَّ بهما المقام اقيمت الفروض الكنائسية باحتفال عظيم وتم التتويج بيمين اقسمها القيصر على ان يجعل حياتهُ وقفاً على خدمة شعبهِ ولا يذخر سعياً في سبيل راحتهم وصيانة حقوقهم . وما انى القيصر على هذه الكلمات حتى علا صوت اليزابيت من بين تلك الجماهير قائلةً الرحمة . . الرحمة . . وكان في نغمة صوتها رنة اثرت على عواطف القيصر فأمر احد حرسهِ وكان اقربهم اليهِ ان ينطلق ويبحث عن صاحبة الصوت فأطاع واسرع قاصداً مكان الفتاة وكان الجنود قد اخرجوها من الكنيسة بالعنف فما وقعت عينا الرجل عليها حتى صاح اليزابيت ؟ اليزابيت هنا ؟ في موسكو ؟

فلما سمعت اليزابيت هذا الصوت لم تمالك ان صاحت سمولف ؟ ثم نشطت نحوهُ مادّةً يديها كالمستغيثة وقد عاشت آمالها بعد ان كان قد تولاها القنوط من مقابلة القيصر وقالت وقد تناثرت اللآلئ من عينيها اني لقد قطعت هذه المسافات

الشاسعة وقضيت تسعة اشهر مشياً على قدمي لاطلب العفو عن ابي وها هم قد طردوني من امام القيصر وحالوا بيني و بينهُ . فقال تعالي معي فلا احد يعترضكِ الآن ودعي القيصر يسمع صوتكِ و يشاهد حالتكِ فلا بد ان يتأثر و يعفو . ثم قادها نحو الهيكل مفرقاً الجنود حتى انتهى بها الى العرش الامبراطوري حيث جثا مع اليزابيت وقال يا مولاي هذه ابنة التعس ستانسلاس بوتوسكي قد اتت من توبلسك حيث يقيم والداها في المنفى منذ اثنتي عشرة سنة وقد قطعت هذه المسافات على قدميها فتحملت كافة انواع العنآء والاخطار في سبيل الوصول الى اعتابك العالية والتماس العفو عن ابيها . ولما انتهى الى هذه العبارة رفعت اليزابيت يديها الناحلتين الى العلآء ورددت قولهُ العفو عن ابي . فنظر القيصر الى محياها المكسوّ بالدموع وقد اثرت فيهِ حالتها ثم التفت نحو سمولف وقال ان من كان لهُ مثل هذه الابنة لا يمكن ان يكون مجرماً وهبهُ كذلك فان الاسكندر يعفو عنهُ . ثم حول بصرهُ نحو الفتاة وقال لقد وهبتُ لكِ اباكِ فهو حرّ من الآن . فما سمعت اليزابيت هذه الكلمات حتى خرّت مغشيّاً عليها من شدة الفرح

ولما عاد اليها رشدها وجدت نفسها في منزل جاك روسي وامامها سمولف فهنأها بما نالت من العفو عن ابيها ولبث يزورها كل يوم الى ان صدر الامر الامبراطوري برجوع سبرنجر الى الوطن فاستلم سمولف الامر وانطلق بهِ نحو اليزابيت مسرعاً فألقاهُ اليها بين عبارات التهاني وابتسامات السرور . فتناولت الفتاة ذلك الامر الذي كان يحتوي على مفاتيح سعادتها وادنتهُ من فيها فغسلتهُ بالدموع . فقال لها سمولف ان القيصر لم يعفُ عن جرم والدكِ فقط بل اعاد اليهِ ثروتهُ والقابهُ ورتبهُ وغداً يبعث بالامر الى ابي ليفرج عن والدك وسأذهب في صحبة هذا الرسول . وقد امر القيصر بأن تُعدّ لكِ عربة فاخرة تقلكِ الى هناك و بأن يكون معك امرأتان ترافقانكِ

وفي غد ذلك اليوم ودعت اليزابيت مضيفيها وسارت شاكرةً افضالهما وسار في صحبتها المرأتان وسمولف فانطلقت بهم العربة تنهب الارض نهباً . وعرّجت في طريقها على ضريح الراهب فكللتهُ بالازهار وودعتهُ بصلاة حارّة ثم استأنفت

المسير وهي تودّ لو ان لها جناحين تطير بهما الى والديها

ولما انتهت الى مدينة توبلسك و بلغت منزل والديها نظرت الى سمولف قائلةً من يعلم بأي حالةٍ اراهما الآن . ثم دفعت الباب ودخلت وحين ابصرها والداها هتفا هتاف الاستبشار واحاطا بها يعانقانها و يغسلان وجهها بدموعهما فصاح سمولف ها هي ابنتكما قد عادت اليكما تحمل العفو. غير ان كلماته لم تؤثر على والديها اللذين بلغ منهما السرور برجوع ابنتهما مبلغاً لم يترك مجالاً للاكتراث بأمر سواهُ فكانا يحدقان اليها ببصرهما ثم يعودان لتقبيلها دون ان يجدا سبيلاً للافصاح عن عواطفهما . وحينئذٍ اقترب منهم سمولف وهو يكفكف دموعهُ وقال لوالديها ان لكما ابناً آخر فان اليزابيت قد تكرمت ودعتني بأخيها غير اني اتجرأ وانا جاثٍ على اقدامكما ان احصل منها على غير هذا الاسم

واذ ذاك شرعت اليزابيت تقص عليهما ما بذلهُ سمولف من الهمة وما ساعدها بهِ من المساعي التي لولاها لم تنل العفو ولا تسنى لها ان تكون في تلك الساعة بين اذرعهما . ثم قالت واني لا ادري كيف اعبر لهُ عن شكري و بماذا اكافئهُ على صنيعهِ و باي شيء اقابلهُ على جميلهِ العظيم . فاجابت والدتها قابليهِ بالحب الذي قابلتُ بهِ اباكِ . وقال سبرنجر اجل فانكِ اذا جعلتِ جزآءهُ قلبكِ فهي الغاية التي ليس ورآءها من مزيد . فضمت اليزابيت يد سمولف الى ايدي والديها ونظرت اليهِ نظرةً نفذ نورها الى اعماق فؤادهِ وترجمت لهُ عما عجز اللسان عن تبيانهِ . فصاح سمولف يا لها من سعادة شملت فؤادي ثم غلب عليهِ السكوت وقد ثمل بخمرة الامل وشعر انهُ اسعد من وجد تحت السمآء

ولم يكن سوى بضعة ايام حتى ودعت اسرة بوتوسكي ذلك القفر الذي ذاقت فيهِ من ضروب اللذة والسرور في يومٍ واحد ما انساهم ذل النفي مدة اثنتي عشرة سنة وعادوا الى مرتع الحرية ونعيم الحياة وعُقد لسمولف على اليزابيت في حفلة باهرة كان السرور فيها شاملاً والهنآء مضاعفاً